إهداء

الى روح صالح سمرة ومحمد طه

وكل الرفاق الذين غادرونا، افتقدنا وجودهم المادى في ميادين مصر وأحسسنا بأرواحهم تبتهج معنا في بشاير النصر،

وكل الشهداء الذين افتدونا وصنعوا النصر في يناير

إلى كل الثوار في كل ميادين الحرية على امتداد وطننا العربي

المجد للشهداء

obeikandl.com

obeikandl.com

تصدير

هذه هي أول رسالة علمية- على حد علمي- عن أعمال المفكر الأفريقي العظيم فرانز فانون، ورغم أن مولده ونشأته المبكرة كانت خارج القارة الأفريقية- فقد ولد عام ١٩٢٥ من أسلاف العبيد الأفريقيين المحررين في جزر المارتنيك- إلا أن مسارات حياته، تعليمًا ومعايشة، قد جعلته من أبرز المفكرين الأفارقة تأثيرًا في فكر ، وحركة النضال التحريري الأفريقي. ورغم عمره القصير الذي لم يتجاوز ستة وثلاثين عامًا، إلا أن أفكاره وأفعاله ونضالاته ربما سيستمر تأثيرها لقرون عدة ، تلهم كل الشرفاء المناضلين من أجل الحرية والعدالة.

ولد فانون في أسرة ميسورة الحال مكنته من دراسة الطب النفسي في مدينة ليون بفرنسا، وبحكم حمله للجنسية الفرنسية فقد كان من غير المتوقع في ظروف كهذه أن يظهر كمفكر وكمناضل على الساحة الأفريقي، غير أن أحداثا عدة غيرت مجرى حياته تغييرًا كليا منها، إحساسه بمظاهر التفرقة العنصرية بشكل مبالغ فيه بعد لجوء فريق من البحرية الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية إلى بلدة- جزر المارتنيك- وممارسة هؤلاء أبشع أنواع العنصرية ضد سكانها على اختلاف أوضاعهم الاجتماعية بحكم كونهم من الجنس الأبيض، ومنها إحساسه بممارسة قدر كبير من العنصرية ضد أبناء جلدته حين التحق بالجيش الفرنسي لمقاومة النازية أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم طريقة التعامل معه في فرنسا أثناء دراسته للطب النفسي ، وتخرجه عام ١٩٥١ ، وأثناء عمله في مستشفي سان- البان بفرنسا، فضلا عن معايشته لتجربة الحرب بين فرنسا والجزائر ، حين انتقل للعمل بالجزائر ، وإدراكه لجسامة الجرائم التي ترتكبها فرنسا ضد المناضلين الجزائريين، كل هذا وغيره دفعه للاستقالة من عمله كطبيب في مستشفي بليدة ، وتخليه عن الجنسية الفرنسية ، والالتحاق بجيش التحرير الوطني الجزائري ، ليحمل الجنسية الجزائرية ، بل وليكون الممثل لجبهة التحرير الوطني الجزائري في المؤتمرات الدولية .

لذا كان من الطبيعي أن يكون فانون –رغم عمره القصير– حاسمًا في رؤاه الفكرية ، وحازمًا في انحيازاته للشعوب الأفريقية دون مواربة ، بل وانحيازه للفلاحين بصفة خاصة بحكم كونهم يشكلون الغالبية المضطهدة ، والمقاومة للظلم على الساحة الأفريقية .

ويكفي هنا أن نشير إلى بعض من مقولاته :

" أنا أريد شيئًا واحدًا ، ألا وهو نهاية استعباد الإنسان للإنسان ، واستعباد الآخر لي ، ذلك سيضمن لي أن أكتشف وأن أجد الإنسان في أي مكان يكون "

وفي خطاب استقالته من مستشفي بليدة وانضمامه لثوار الجزائر يقول :

"منذ شهور عديدة وضميري يخضعني لنقاش حاد ، خلاصته عدم اليأس من الإنسان ، أي عدم اليأس من نفسي ، ولذلك صممت على ألا أتحمل مسؤولية أي موقف سلبي .....بالاستمرار في العمل .

وفي خطاب له أرسله وهو على فراش المرض ، وقبل وفاته بوقت قصير يقول:

" ما أريد أن أقوله : هو أن الموت يلازمنا دائمًا ، فليست المسألة هي كيف نهرب منه؟ ولكن ما إذا كان كنا حققنا أقصى ما نستطيع للأفكار التي عملنا من أجلها؟ والذي يهزني حقيقة في سرير مرضي ليس حقيقة أنني سأموت ، ولكن أن أموت بمرض اللوكيميا في واشنطون ، بينما كان يمكن أن أموت منذ ثلاثة أشهر في مواجهة العدو (فرنسا) ".

ولذلك ليس من المستغرب أن يكتب أحدهم عنه بأنه: " من صنف المثقفين الذين يتخذون المواقف القصوى ولا يهضمون المواقف المترددة ، وأن الظروف التي تحكمت في حياته قد هيأته لهذه الجذرية" .

وأن يقول آخر عنه:

" لقد كان الباب مشروعًا أمام فانون ليلتحق بالنخبة السوداء ، ولكن بعض السجايا والقوى الشخصية المميزة للرجل دفعت به بعيدًا عن الاستفادة من مهاراته ومنجزاته الشخصية الخاصة ، ذلك أنه غدا متمردًا ثم ثوريًا ".

.... ألا يستحق هذا المفكر الثائر الإنسن بعد ما ذكر – وهو قليل – أن يخلد ، وأن يكرم ؟

ولعل أقل تكريم لهذا الإنسان هو هذه الرسالة العلمية ، التي آمل أن تصل إلى أسماع وقلوب المثقفين العرب والأفارقة ، ليربطوا الفعل بالقول ، بدل الحديث عن

الثورة والنضال والتحرير والعدل من وراء ستار الصالونات المكيفة، والحوارات المتلفزة التي يدفعون بها الجماهير إلى الثورة ليركبوا قمتها دون عناء .

... أما الباحث العجوز فإني أوجه له شكرًا خاصًا لتصديه لهذا العمل، وقد كنت مشفقا عليه . فقد أثبت بدأبه ونبله أنه مازال شابًا ، وأن في داخله إنسانا ربما يدفعه إلى سلوك مسلك الشاب المفكر المناضل فانون ، وأظن أن الوقت ليس متأخرا ، ومازال في عمره بقية للنضال بالقول والفعل .

أ. د. إبراهيم أحمد نصر الدين

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

في السادس من ديسمبر ٢٠١١ تحل الذكرى الخمسين لرحيل المفكر والمناضل فرانز فانون عن عالمنا، وتزامن طرح هذا الكتاب وظهوره إلى النور في هذه الذكرى هو بمثابة رد اعتبار له واعتذار عن طول تجاهل النخب السياسية والثقافية والفكرية وعن غيابه عن ساحة الثقافة السياسية العربية.

وفرانز فانون ينظر إليه باعتباره مناضلاً ثوريًا منذ قرر التخلي عن جنسيته الفرنسية وهو القادم من جزر المارتنيك واكتسابه الجنسية الجزائرية، متدثرًا ملتحفًا بها ومشاركًا في ثورتها، كاتبًا وصحفيًا ومقاتلاً في صفوف جبهة التحرير الوطني الجزائرية وهو أيضًا مفكرًا استثنائيًا، له إسهاماته الفكرية المتعددة المشتبكة مع قضايا العصر، وله رؤى استدعت جدلاً واسعاً بين أوساط المثقفين من كافة الاتجاهات بين مؤيد ومعارض. وعاش تجارب حياتية كان لها أبلغ الأثر في تكوينه، انضم للعمل في صفوف الثورة الجزائرية وساهم بنشاط في فعاليات وإحداث هذه الثورة، الأمر الذي ساعده على دراسة المجتمع الجزائري ورصد التحولات التي أحدثها الكفاح المسلح في بنيته، وقدم إسهامات نظرية وعملية كان لها تأثيرها العميق في مسيرة الثورة، وأصدر في ذلك كتابه المهم (خمس سنوات على الثورة الجزائرية) والذي تُرجم أحيانا تحت مسمى (سوسيولوجيا الثورة). وكانت له أيضا إسهاماته الفكرية في مجال العمل على تحقيق استقلال ووحدة أفريقيا والعمل على نهضتها.

ومما يشد الانتباه إلى الإنتاج الفكري لفانون، أن كتاباته لم تكن وليدة تنظير مجرُد مجافٍ للواقع، لكنها اشتملت على خبراته العملية الناجمة عن انخراطه في الجيش الفرنسي إبان حرب التحرير ضد النازية من جهة، وفي صفوف جبهة التحرير الوطني الجزائرية فيما بعد من جهة أخرى، ومن مشاهداته ومتابعته لنشأة وتطور حركات التحرير الوطني في أرجاء القارة الأفريقية

كما أن كتاباته لم تقف عند توصيف الاستعمار وتفسيره، لكنها تعدت ذلك إلى العمل على كيفية التخلص منه وسبل مواجهته، وهي تؤكد بشكل حاسم أن الاستعمار هو المسؤول عن ثقافة العنف، بخلقه مناخاً عاماً من الممارسات العنيفة والوحشية.

وفي هذا الكتاب نعمل على رصد وتحليل الإسهامات الفكرية لهذا المفكر

الأفريقي في ضوء المشكلات التي واجهها، والأحداث التي عايشها في عصره،واضعين في الاعتبار ،الظروف والعوامل التي أثرت على فكره وكذا سماته الشخصية، مع وضع كل ذلك في إطار قضايا العصر وسياقه الحضاري

وأتصور أن الدارس لفكر فانون،سيصل حتما إلى نتيجة مؤداها،أن منطقتنا وفي واقعنا المعاش الآن، أشد ما تكون احتياجاً إلى مجمل أفكاره الخاصة بمواجهة العنف الاستعماري، الذي يشمل هذه المنطقة من العالم في وقتنا الراهن.

كما أن القارئ لفانون لابد أن يلحظ أن لبعض أفكاره التي طرحها منذ ما يقرب من خمسين عاما ما زال لها جاذبيتها وصحتها في وقتنا الراهن، خاصة أفكاره حول:

-البورجوازية المحلية بسماتها التي قدمها لنا منذ خمسين عاما، تكاد أن تكون هي نفس سمات البورجوازية في مجتمعاتنا العربية والأفريقية في زمننا الراهن هي في رأيه بورجوازية بالفكر، ،لا تملك قوة اقتصادية،وهي بورجوازية متخلفة،راكدة قليلة العدد،متمركزة في العاصمة،ليست متجهة نحو الإنتاج ولا تملك رؤوس أموال كبيرة كنظيرتها الأوروبية، وإنما تتشبه بها في جانبها السلبي فتسيطر عليها روح التمتع والميل إلى الاستهلاك دون أن تكون قطعت مراحل الابتكار الأولى التي قطعتها البورجوازية الأوروبية، ويرتب على ذلك نتيجة مؤداها،أن علينا أن نعارض معارضة حاسمة في قيام طبقة من أصحاب الامتيازات، والدور الوحيد الذي يراه لها، هو أن تنكر نفسها كأداة لرأس المال وأن تضع نفسها كاملا في خدمة الشعب وهذه الرؤية كفيلة في حد ذاتها أن ترد الاعتبار لتصورات فانون المبكرة حول دور البورجوازية الوطنية وخياراتها الاقتصادية والاجتماعية.

- المكانة التي استخلصها للمرأة في العمل الثوري، ترفع قضية المرأة إلى مكانة لم تستقر بعد في معظم دول العالم الثالث، حيث أن هذه القضية لم تخرج، في صياغاتها الحالية، عن برامج مواجهة الفقر والبطالة، وفق رؤية برامج المؤسسات الدولية. وبالتالي فإن الصياغات الحالية حول قضية المرأة ودورها المجتمعي، تحتاج لرؤية فانون المتقدمة.

- حالة القهر الاستعماري الذي خصص له معظم كتاباته، هي الحالة التي تستدعيها الآن الأحداث التي تجرى في دول العالم الثالث، من غزو مباشر لبعض دولها ومحاولات للهيمنة وتكريس التبعية والسعي لعولمة معسكرة تنفي الذات

والمجتمعات، الأمر الذي يؤكد الاحتياج لجملة أفكار فانون الخاصة بمواجهة العنف الاستعماري والعمل على مواجهة الليبراليين الجدد الذين يروجون للمشاريع التفتيتية للمنطقة.

والمتابع للحياة السياسية والثقافية والفكرية العربية،يدهشه أن يكتشف أن مثقفا ومفكرا بحجم فرانز فانون وإن لمع اسمه في النصف الأول من ستينيات القرن الماضي، بعد صدور كتابه (معذبو الأرض)، الذي عُد الأكثر رواجاً بين مثقفي العالم العربي آنذاك،إلا أنه في مرحلة لاحقة، جرى تغييبه وما يمثله فكره عن الثقافة السياسية العربية، ولم يتم تناوله بالقدر الكافي من الاهتمام، ويعود ذلك في المقام الأول إلى طبيعة القوى الاجتماعية المسيطرة آنذاك .

وإذ أتقدم بهذا للقارئ العربي، يلزم أن أنوه أن مادته الأصلية، قدمت في إطار دراسة عن الفكر السياسي الأفريقي تقدمت بها للحصول على درجة الماجستير في الدراسات الأفريقية(علوم سياسية) من معهد الدراسات والبحوث الأفريقية جامعة القاهرة،بإشراف عالمين جليلين هما الأستاذ الدكتور إبراهيم نصر الدين أحد رواد الدراسات الأفريقية البارزين على مستوى القارة، والدكتور صبحي قنصوة الذي يشهد له الجميع بغزارة علمه ودمث خلقه، فلهما ولكل أساتذة المعهد الكرام وجميع الزملاء كل الشكر والعرفان على ما قدموه من علم ومعرفة وجهد ساعدني على السير في الطريق، وفي هذا المقام لا يسعني إلا أن أتقدم بموفور شكري وامتناني العميق للمفكر المناضل الأستاذ حلمي شعراوي على إمداده لي بالكثير من المراجع العلمية التي بدونها لم يكن لهذا العمل أن يرى النور، كما اشكره مجددا على ما حظيت به من ثقته وثقه فريق العمل المتميز في مركز البحوث العربية الأفريقية، من شرف نيل جائزته للدراسات الأفريقية .

آمل أن أكون،قد أسهمت بهذا العمل بإعادة التذكير بمفكر ومناضل يستحق كل التقدير للدور الذي أداه وقام به في حياته القصيرة .